كلام في التجربة الذاتية [1]

استطرادات
الكتابة بالجسد

سآخذ هذا الكلام على غير محمله الذي تواضع الناس عليه، فحينما تتسع الفكرة، فإنها لا شك تدخل في التفاصيل، وحين تضيق العبارة، فهي توشك على الدخول في عالم من التحديد، والتحديد لا يكون تجريدا، وإنما يكون تجسيدا، والتجسيد دخول في التفاصيل، والتفاصيل تحتاج إلى عين الرائي، والرؤيا بمد الألف هي الرؤية بلي الألف، فتغدو تاء بالمعنى البصري وبالمعنى البصيري أيضا إذا ما جاز لي نحت هذا التعبير الذي رفضه المصحح اللغوي في الكمبيوتر كما تعود أن يرفض عشرات من الكلمات غيره التي لا أحاول نحتها أو إدعاءها، فهو يرفض كثيرا من مألوفات الكلام، وبالمقابل فها هو يقبل جمع (مألوف) إلى (مألوفات) التي لم تستسغها الذائقة الكلاسيكية، وأقتحمتها بذائقة إيقاعية من طراز آخر. لنعد إلى الموضوع بعيدا عن استطرادات الجاحظ ونطنطاته...

«اليوم كان البارحة، والغد قادم على جدار رمادي، ورقة بيضاء على جدار، هذه نافذة ! لا إنها الحياة»

مكسيم حمودة [2]

«كلما اتسعت الفكرة ضاقت العبارة»

النفري

كنا نقول:

التفاصيل تحتاج إلى عين رائية، والرؤيا تحتاج إلى المشهد، والمشهد قد يمثل أمام العين، فتراه... تقلبّه، وتتلصص على ثناياه، تخلع أرديته قطعة قطعة، وهنا ينقلب المشهد من صورته أمامنا إلى صورته فينا. العين تحيل المشهد من صورة أمام العين المبصرة إلى صورة في المخيلة، وصورة المخيلة تنبني لنراها بعين البصيرة، فنرى في الصخرة حصانا أو في الإنسان كمانا.

ما الذي يتيح لي أن أنتقل من صورة كلية جامدة إلى صورة تفصيلية حية؟
ما الذي يستطيع أن يقلّب المشهد، ويعيد إنتاج علاقاته مرة أخرى؟
ما الذي يستطيع أن يحمل الصورة إلى خيالها والفكرة إلى صورتها؟
كنت أظن أنها اللغة.

فلعبت فيها بمهارة المقلد، وبمهارة حذو النعل بالنعل، ودرّستها في أول العمر كما شاءت لها المناهج المدرسية أن تدرس تقريبا، درستها مع جنوح بسيط...إلى أن أدركت أن اللغة ليست هي المسألة، فكلنا لاجئون إلى اللغة، نحمل منها ما نحمل، وكثيرا ما كنا نأخذ اللغة من كلام الآخرين، الكلام المنجز الجاهز المستهلك، فالمسألة هي أن ننتج من اللغة هذه، كلامنا، كلامنا الشخصي، قولنا الذي لنا، الكلام الشخصي، والقول الذي يكتسب فرادته، ويسترد عافيته حين يغدو قولي

ورشة في إستخدام الدراما كوسيط تعليمي – غزة

(أنا) وصوتي (أنا)، ليست مهمةً بلاغتُه إذا ما كانت هي تلك البلاغة الجاهزة التي تستعار كما تستعير القدمُ حذاءها أو الرأسُ قبعتها، فهي بلاغة ميتة أو في أحسن الأحوال ملائمة للعرض في المتحف، لكنها لا تستطيع أن تتآلف مع لحظة حقيقية على رصيف ما في شوارع مدينتنا (رام الله) التي بات يأكلها الأسمنت، ولكم أن تعرفوا ما الذي يمكن أن تفعله بنايات الإسمنت الجاهزة، وتصبح المدينة معبدا للإسمنت. لنترك الجاحظ مرة أخرى، واستطراداته، ولنعد إلى أول القول.

قلنا: كنت أظنها اللغة

ولكنها الكلام، ولكي يكون الكلام، لا بد أن يكون الفرد فردا لا صوت قبيلة أو صدى متحف... أو أي شيء آخر غيره، فيغدو (هو... هو) و(أنا...أنا)، وكلانا غارق في تفاصيله، ولكنها التفاصيل التي أحتاج معرفتها فيه كي أعرف ذاتي.

«الآن – هنا» في هذه اللحظة الحية، وفي هذا المكان بالضبط، ومن «الآن – هنا» يمكن أن أتحرك في كل الاتجاهات إلى كل الجهات، ويمكن أن أتنقل عبر زمانين: زمنٍ مضى وزمنٍ آت.

1- قدمت هذه المداخلة في «الملتقى التربوي العربي» الذي انعقد في عمان/ الأردن في نيسان 2000، وقد شاركت فيه عبر مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.
2- هو أحد طلبتي في مدارس الفرندز، كان في الصف التاسع سنة 1995 حينما كتب قصة بعنوان «أمام النافذة وخلف الجدران» ومنها اقتبس هذه العبارة.

«الآن – هنا» هي كلمة السر والسحر، هي كلمة البوح والستر، وهي مفتاح الحياة حينما تحتفي بمتناقضاتها، ولكي يبدو الأمر احتفاليا تماما، فلا بد من الدراما إذن....

ورغم أنني احتفيت بالدراما في صغري عبر التمثيل، والنقد المسرحي، إلا أن ألقها لم يكن متوهجا، إلى أن جاءت لعنة الآلهة على صورة امرأة اسمها سمر دودين ألقت بشرارتها، فلمع بصر الدراما في مجالها التربوي- وليس كما أعرفها في مجالها المسرحي كفن، ولمعت بصيرتها في عيني من تلك اللحظة التي رأيت فيها «الشيء» تجريدا وتجسيدا للحياة، وكان هذا الشيء «جرة زيتون» في منتصف الغرفة، والمعلمون والمعلمات حولها، ودودين ترقص كساحرة بين العين الرائية والخيال الرائي، لينفرج المشهد أو ينفجر، ثم تلاحقت اللعنات إلى أن رأيت «الشيء» ذاته حاملا البشرية وتاريخها في نسيجه حينما كان الكاتب المسرحي الإنجليزي صاحب مسرحية «الملك لير» الثانية، يبعث الحياة في «معطف قديم» حينما علمنا في إطار دراسة الماجستير، كيف تتبنى الدراما عبر الشيء وخيالاته الظاهرة والكامنة.

لنترك الجاحظ مرة أخرى، ولنعد إلى النص الأصلي كي ندخل في الارتجال، فالارتجال ليس خروجا على النص الأصلي بل هو بناء عليه، هو نطفة أولى، ومن هناك تنبعث الارتجالات في كل الاتجاهات، ويتحول العالم بتفاصيله وجزيئياته إلى إشارات، وتغدو الإشارات علامات، والعلامات رموزا، والرموز تندفع في سياقات التوتر والقلق، ليبنى عالم تخيلي يرتد عن الواقع ويرده.

«كلمات»[3] كانت التجربة الحقيقية الأولى بالنسبة لي لاختراق عالم الكتاب المقرر، والصف المقيد، وهي مجلة العدد الواحد الذي لم يصبح ثاني اثنين إذ هما في المدرسة، تجربة مجهضة، قُصفت من أول الروح، حيث هناك يقف جلادان، كل منهما بسوطه، الأول يحمل سوط ضرورة استكمال المنهاج المدرسي، والثاني سوط ضغط عمل فوق النصاب المدرسي، وفي الحالتين سأكون أمام كماشتين ضاغطتين، ولم أصمد حينها، وسقطت «كلمات» ولم يكن ممكنا العبور بها في ذلك الوقت، فانكفأت، ولم يعد الفتيان والفتيات يجدون فسحة ما، ليقولوا ما يشاؤون قوله.

إنني أتحرك في أفق المشاريع الناقصة، المشاريع الناقصة دوما، التي لا تعطي إجابات حاسمة ونهائية بقدر ما تفسح فضاء لسؤال ما، لاكتشاف أننا نرى ونبصر، عبر لعبة الأجساد وحواسها يتكشف عالم من «غرفة بملايين الجدران[4]» وتغدو كتابة المشتركين الصغار، وكأنها هي حالتهم اليومية، هذا (الوهم) الذي سرعان ما ينفقيء عند عتبة المدرسة، أو عند صفحات كتاب مدرسي، لم يعد من الممكن الاستمرار في ادعاء التوازن، إذن لنخرج من غرفة الصف إلى فضاء أرحب قد يستطيع أن يدفع الجدران من أمام العين، ويترك الجسد في فضاءات الحركة التي شيىء لها أن تؤسر كي تبقى حبيسة المقعد كصنم لا يحيل إلى أسئلة وخيالات!.

ورغم أنني احتفيت بالدراما في صغري عبر التمثيل، والنقد المسرحي، إلا أن ألقها لم يكن متوهجا، إلى أن جاءت لعنة الآلهة على صورة امرأة اسمها سمر دودين ألقت بشرارتها، فلمع بصر الدراما في مجالها التربوي.

أي ظلم هذا الذي أرتكبه، أحاول أن أخلخل جدارا ما لفترة من الوقت – هي بالضرورة قصيرة، ومشنوقة على حبل الزمن المدرسي – ثم يعود الجدار لينتصب مرة أخرى

وأن يقتنع الناس، بعد ذلك، بأهمية الكتابة في الحياة أمر بالغ الصعوبة!!

أي ظلم هذا الذي أرتكبه، أحاول أن أخلخل جدارا ما لفترة من الوقت – هي بالضرورة قصيرة، ومشنوقة على حبل الزمن المدرسي – ثم يعود الجدار لينتصب مرة أخرى، ما جدوى أن يجد الصغار متعة ما (أدعي تحققها!) لبعض الوقت ثم لا يلبثون أن يعودوا إلى مفرمة النظام المدرسي، وتقاليد الكتاب المقرر الذي يحيلنا إلى رماد؟!.

لم أستطع أن أواظب على التحايل على الكتاب المدرسي مع طلبتي، بقصة من هنا، وبرواية من هناك، مختلسا وقتا ما معهم خارج السياق الرسمي مرة في الأسبوع، ثم نقضي بقية الأسبوع في التناطح مع نصوص رديئة، جامدة، وعظية لا روح فيها، ولا حياة، خطاب لغوي مشروخ، مهما حاولت زخرفته، أو مراوغته أو التحايل عليه، فإن شرط التواصل معه يبقى غائبا، شرط المتعة، ومن هنا تبدأ الحكاية:المتعة، الخيال، الحرية، التشارك، ولذا فإن الكتابة هي إنتاج المعنى، وإنتاج المعنى يحتاج إلى عين، والعين تحتاج إلى رؤيا، والرؤيا كامنة في التفاصيل، والتفاصيل هي التي تمنح الأشياء معناها، والأشياء هي العالم مكثفا فيها، والمسألة أن نفتح الأشياء، وفتحها لا يتحقق إلا بأجسادنا وخيالاتنا... نعم بفائض الخيال، وليس بفائض القيمة كما هو في عالم الاقتصاد، وكما هو العالم متجه في هذه السنوات.

وعفوا للجاحظ مرة أخرى على هذا الاستطراد الأخير، ولكن العمر قصير، و(بيكاس) في رواية سليم بركات «فقهاء الظلام» يقول: «عمر الإنسان في الأصل يوم واحد، ومن يعيشون لسنين هم استثناء، يوم واحد يكفي» يوم واحد مليء بالحياة، بالتفاصيل، بصورنا وبصور الآخرين، ربما يمنح اليوم/الحياة إمكانية تحققها، شرط أن نأخذ النقري بالحسبان حين يقول: «إن لم تقف وراء الوصف، أخذك الوصف».

وسيم الكردي
شاعر وتربوي متخصص في مجال الدراسات والكتابة الابداعية في المجال التربوي
منسق البحوث والبرامج والمنشورات في مركز القطان للبحث والتطوير التربوي.

3- «كلمات» هي تجربة انتاج مجلة ابداعية من قبل الطلاب في مدارس الفرندز وبمتابعتي، وذلك في العام 1995 غير أن التجربة لم يكتب لها سوى أن تكون العدد الأول والأخير.

4- عنوان مجموعة شعرية للشاعر محمد الماغوط– سوريا